

تعليم المرأة الجزائرية أثناء الفترة الاستعمارية

- عند الشيخ بن باديس نموذجاً -

Education of Algerian women during the colonial
period: the case of Sheikh Ben Badis model

أ/ بن حميد فتحية

جامعة الجزائر 2 - الجزائر

fathia.bm@yahoo.com

تاريخ النشر
2018/12/30

تاريخ القبول
2018/12/19

تاريخ الإرسال
2018/09/14

مقدمة:

تعد الأسرة اللبنة الأساسية في بناء المجتمع المسلم والمحسن، وعماد هذه الأسرة المرأة بما تقدمه من تربية فهي أساس حفظ الدين والخلق، فتكوينها يعكس تربية الأولاد وجهلها فساد للأسرة والمجتمع. وقد عرفت المرأة الجزائرية إبان العهد الاستعماري وضعاً خاصاً راوح بين التحفظ الذي طالما أبداه الجزائريون غيراً على العرض والشرف في اعتقادهم، وبين الدعوة إلى تعليمها وثقيفها باعتبارها عنصر فاعل في البناء الاجتماعي.

ولقد تظن الشيخ بن باديس إلى أن المرأة هي أساس في النهوض والتحرير وأهميتها في التربية والتعليم حتى تؤدي دورها بشكل إيجابي في الحفاظ على الهوية والشخصية الجزائرية والوقوف في وجه السياسة التغريبية الفرنسية، وبناء على ذلك نادى الشيخ وأكد على ضرورة تعليم المرأة المسلمة وأعطى لها اهتماماً كبيراً منوهاً للخطر المحدق بالامة إذا تركت هذه النواة بغير تعليم.

وبناء على هذا أولى الشيخ بن باديس أهمية معتبرة لتعليم المرأة وإعدادها إعداداً دينياً وأخلاقياً لضمان تفاعلها الإيجابي والمؤثر في بناء الأسرة الجزائرية المحافظة والمتمسكة بمقاييس هويتها ، فأعد لها برنامجاً ومنهجاً خاصاً وحساساً قائم على عدم الاختلاط والحماية وهو موضوع هذه المداخلة التي قسمتها إلى تتجسد في تتبع واقع تعليم المرأة أثناء الاحتلال الفرنسي ثم جرد اتجاهات العلماء الجزائريين اتجاه تعليم المرأة وثالثاً جهود الشيخ بن باديس في تعليم البنات ثم منهج المدرسة الباديسية في تعليم البنات وأخيراً طرق التدريس ومنهجها عند الشيخ بن باديس .

الكلمات المفتاحية: التعليم ؛ المرأة ؛ الشيخ بن باديس ؛ التعليم الديني ؛ سياسة التجهيل .

Abstract

The family is regarded as the main constituent in the fortified Muslim society building. And the woman is its basis for her endless contributions and sacrifice; as preserving the religious and ethical values. Her good education reflects the children education while her ignorance leads to the family and society deterioration. During the colonial period, Algerian women had a special status between the Algerians' beliefs and the call for their education as an active component of the society construction.

Sheikh *Ibn Badis* noted that women are the basis for the advancement and liberation of any society. Thus, their education is so crucial in order to play a positive role in preserving the Algerian identity and personality, fighting the French policy of exaggeration. Accordingly, Sheikh Ibn Badis stressed the need and necessity of the Muslim women education, giving them a great attention.

Consequently, Sheikh Ben Badis focused a lot on the importance of women education and formation at different levels: religious, cultural, ethical to ensure their positive and influential interaction in building the Algerian family, which is conservative, adhering to its standards of identity. Hence, he prepared a special program based on non-mixing and protection.

Key Words: Education of women; Sheikh Ibn Badis religious education; policy of ignorance.

1- واقع تعليم المرأة أثناء الاحتلال الفرنسي:

يعد موضوع تعليم المرأة خلال العهد الاستعماري من المواضيع الجديرة بالدراسة، لما تكسبه المرأة من مكانة مرموقة في المجتمع الجزائري.

فإذا كان العثمانيون في الجزائر لم يتبنوا سياسة تعليمية واضحة تجاه ترقية وتعليم المرأة عدا بعض العائلات الميسورة الحال التي كانت تستأجر مدرسين وتعهد إليهم تأديب بناتهم ، كون العوائد في الوسط الجزائري وقتها لم تسمح للبنات بالاختلاط ولم يكن مدارس خاصة بتعليم البنات .⁽¹⁾

وبعد الاحتلال الفرنسي عانت المرأة من قيود الجهل نتيجة حرمانها من التعليم بل وانتشار الأفكار الجامدة التي دعت إليها أطراف عديدة من بينها الطريقة التي حرمت المرأة من التعليم والتهذيب ومن ثم أضحت أوضاعها أسوأ مما كانت عليه في الدول العربية المجاورة ، رغم أن فرنسا تبجحت بحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل فان هذا الشعار غيب في الجزائر بل سعت في سياستها على قتل وعزل وإبعاد المرأة الجزائرية عن قضايا المجتمع وعدم إشراكها فيه وحرمانها من أدنى شروط الحياة حتى الطبيعية منها .⁽²⁾

وبالرغم من ذلك فإن حركة النهضة التي عرفت الجزائر منذ بداية القرن 20 م، أولت اهتماما خاصا بالمرأة الجزائرية باعتبارها نقطة و مرجعية فاعلة في

مشروع التغيير وأضحى إدراجها في حركة الإصلاح ضرورة حتمية لان سياسة التجهيل الاستعمارية جعلت من المرأة بمثابة آلة لإنجاب الأطفال.⁽³⁾ من المؤكد أن أية حركة إصلاحية للمجتمع لا بد أن تستدرك أهمية المرأة باعتبارها نصف المجتمع واللبنة الأساسية فيه فإذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسدت فسد المجتمع لما تكسبه من أهمية في تثمين تربية الناشئة وإعداد الأجيال وغرس وتمكين المفاهيم القيمة في النفوس لدى الأجيال الصاعدة وقد قبل " وراء كل عظيم امرأة " ومن ثم فالمرأة مدرسة أولى فإذا أعدتها أعددت جيلاً طيب الأعراق.⁽⁴⁾

ويمكن القول أن المرأة ظلت شبه معزولة عن المحيط وعن العديد من المستجدات التي طرأت على وضعية المرأة العربية سواء في المدينة أو في الدول المجاورة أعطت أهمية لترقية المرأة كالذي ظهر في مصر بتأثير قاسم أمين ورفاعة الطهطاوي وتونس في كتابات الطاهر حداد المبالغ فيها إذ أنه دعا إلى منع تعدد الزوجات وجعل الطلاق من اختصاص العدالة ولا دخل للخروج فيه وقد أغضب ذلك رجال الإصلاح في الزيتونة واعتبروه مروقاً عن شرع الإسلام.⁽⁵⁾

وبالرغم من تلك الصيحة النبيلة للاهتمام بالمرأة فقد ظلت بعض الأوساط المتحفظة من ذلك فمناطق الشمال لن يعقها هذا المطلب بل رحبت به في حين اعتبرت مناطق الجنوب إشراك المرأة في التغير ظاهرة غريبة عنهم وبالتالي ظلت المرأة عندهم شبه معزولة عن العديد من المستجدات التي طرأت على الشمال والذي تفاعل مع العديد من الحضارات عبر الأزمنة التاريخية المختلفة.⁽⁶⁾

لقد غلق على المرأة لمدة زمنية طويلة فقد أوردت أوكلير في إحدى رواياتها فصولاً لوصف فنون وصناعات النساء الجزائريات ودعت إلى

تكوين المرأة المسلمة لتصبح طيبة وهذا بهدف حل معضلة رفض العرب الأهالي للطبيب الأجنبي وطرحت أيضا مشكلة غياب المدارس الموجهة للنساء العربيات تحت عنوان بارز " الجزائر العاصمة دون مدارس للفتيات".⁽⁷⁾

وعلى الرغم من النداءات الكثيرة لتعلم الفتيات المسلمة وإعدادهن لتأدية المهام المكلفة منهن هي خدمة الحضارة الفرنسية والمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر إلا أنه اتضح لنا من خلال تقصينا للواقع إبان فترة الاحتلال أن الحكومة الفرنسية في الجزائر لم تقدم أي مشروع جاد بهذا الخصوص وهذا بسبب تضارب الرؤى في السنوات الأولى من الاحتلال حول الطريقة المثلى لضمان رضوخ الأهالي.⁽⁸⁾

لقد بقيت المرأة الأهلية بعيدة عن تيارات المفكرين والمنظرين الفرنسيين وعن أي تغير فعلي وجذري في وضعيتها وكل ما قام المستعمر هو أنه حاول إحداث هذا التغير بفتح ورشات لتكون وسيلة احتكاك بين المرأة الأوروبية والمرأة المسلمة الجزائرية وقد بدأ عملية التعرف والاتصال ومحاولة تكسير الحواجز بين المتقدمات السافرات المتحررات القادمات من أوروبا وبين المخلفات المغلوبة على أمرهن في الجزائر.⁽⁹⁾

جعل العديد من الكتاب الفرنسيين تربية وتعليم الفتاة المسلمة مقياسا للمستوى الحضاري للأمة الفرنسية فالكاتب س. جوايو S GWAOU قد ذكر جملة للحاكم العام الفرنسي بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال: "إن تربية المرأة المسلمة قد تشكل ذروة مجد الحضارة الفرنسية"، إلا أننا نجد أن الساسة الفرنسيين قد طبقوا عكس المطلوب بالاهتمام بمشروعهم التغريبي فعمدوا إلى محاربة التعليم العربي بهدم مراكزه أو تحويلها إلى خدمة مصالحهم: " فالحكومة الفرنسية قد تجاهلت أول أمرها قضية التعليم ولم تكن مشغلة إلا

بإفناء العنصر الجزائري وتحطيم قواه وإخماد حركاته⁽¹⁰⁾ ومع هذا التضييق على التعليم عمد الطبقة الجزائرية المثقفة بالتعليم سرا في ديارهم ومع الوقت أخذت الحكومة الفرنسية تفتح أبواب المدارس شيئاً فشيئاً أمام أبناء الجزائريين منذ سنة 1883 م حيث كان هذا التعليم تعليماً فرنسياً بحتاً فاللغة الفرنسية هي لغة الوطن وبلاد فرنسا هي الوطن والتاريخ الفرنسي هو تاريخ الوطن⁽¹¹⁾.

إن سياسة التجهيل سارت مع سياسة التفجير شعار الاستعمار الفرنسي في الجزائر فالإحصائيات المتعلقة بعدد التلاميذ الجزائريين المرتادين المدارس الفرنسية لم يزد على 10 % طيلة فترة الاستعمار الفرنسي وكانت هذه النسبة أقل بكثير من الإناث ومن خلال نسبة التمدرس في أوساط الفتيات الأهليات فإلى غاية 1950 كان هناك 4 % في سن التمدرس كن يذهبن إلى المدرسة 10% بالنسبة لكل الأطفال الجزائريين مقابل 97% للأطفال الأوروبيين حتى بعض المراكز المتخصصة لتكوين الفتيات كمركز بون باستور بالأبيار وميسرغين سجلت 125 فتاة ومراكز التكوين الأسري والتدبير المنزلي عرفت التحاق 80 فتاة و 60 فتاة أخرى في مركز سكيكدة وبالتالي أقصيت الفتاة من التعليم وبالتالي أصيت الفتيات من التعليم أكثر من الذكور ومع بزوغ فجر الاستقلال كانت 90% من الجزائريات أميات⁽¹²⁾.

وتشير إحصائيات أخرى أنه سنة 1956 م كان هناك فتاة واحدة متمدرسة مقابل 5 أو 6 أولاد ومن بين 773971 فتاة في سن التمدرس نجد 82879 منهن في المدارس عن 10 ملايين نسمة من السكان بصفة شاملة فالفتيات التحقن أكثر فأكثر بعد المؤوية بالكتاتيب والمدارس العربية الحرة⁽¹³⁾.

أما إذا بحثنا في مناهج المدارس الابتدائية التي أنشأها الاستعمار لتعليم أبناء الجزائريين فإننا نجد أنها فرنسية 100% فليس للغة العربية والثقافة العربية

والدين الإسلامي أي نصيب في مناهجها رغم أنها خاصة بالجزائريين فالتعليم فيها ليس عربيا ولا إسلاميا ولا جزائريا ، وإنما هو فرنسي في المناهج والتوجيه العام والأهداف وقد كانت هذه سياسة مرسومة من الاستعمار من أجل وأد اللغة العربية في الجزائر وفرنسة الجزائر لسانا وفكرا تمهيدا لتنصيرهم عقيدة وإدماجهم سياسيا في الكيان الفرنسي .⁽¹⁴⁾

لكن مع شعور فرنسا بعدم إقبال الجزائريين على المدارس القليلة التي أنشأتها لتعليم أبنائهم لخلو تعليمها من اللغة العربية والدين الإسلامي أصدرت في جوان 1898 م قرار ينص على تعيين 33 مدرسا للغة العربية والدين الإسلامي وزعتهم على 33 مسجدا مهمتهم إلقاء دروس للكبار و أخرى للصغار حسب رغبتهم من باب در الرماد في الأعين ، تاركين للمعلمين حرية اختيار الدروس من فقه وقواعد وتوحيد أو أدب دون ضبط برامج محددة ، وإذا بحثنا عن حظ اللغة العربية والثقافة العربية في مناهج المرحلة الثانوية فإننا نجد ضئيلا فهي اختيارية يختارها من يريد من الطلبة الجزائريين وهي مقسمة إلى قسمين عربية عامية حديثة (عصرية) وعربية فصحي قديمة (كلاسيكية)⁽¹⁵⁾

نادى العديد من الإنسانيين والعقلانيين بضرورة تعليم الفتاة الجزائرية خاصة والمسلمة عامة فقد نادت ماري بوجيجا وهنريات سيلاري في مؤلفيهما بعنوان " أخواتنا المسلمات " سنة 1925 م : " إن المرأة المسلمة لا تعرف توقيع اسمها ولا تعرف قراءة الساعة ولا تثبت حساباتها انه لمن الواجب نحوها وواجب إخلاصنا نحو مبادئنا الخاصة أن المبادئ الفرنسية يجب أن تطبق على الفتيات المسلمات من هذه الجهة من البحر الأبيض المتوسط"⁽¹⁶⁾

كان موريس فيوليت وألبير تروفموس أكثر صدقا وموضوعية وحرصا على مصالح فرنسا الاستعمارية حيث طالبا بضرورة استحداث مدارس لتعليم البنات ودجهن في الحضارة الفرنسية حيث صرح هذا الأخير سنة 1927 قائلا: "إن المرأة الأهلية التي لم يتم قبولها بعد في حضارتنا تفسد عندها مع أطفالها وحتى مع زوجها أحسن ما علمناه قد يتم عقابنا دائما نتيجة لأخطائنا".⁽¹⁷⁾

من الصعب الحديث عن تعليم فرنسي جاد وفعال موجه لأبناء الأهالي وإنما كان الشغل الشاغل بالنسبة للحكومات الفرنسية المتعاقبة في جميع مراحل الهيمنة الفرنسية على الجزائر هو ضمان خضوع الجزائريين وتسخيرهم لخدمة المستعمر الفرنسي وخدمة المعمرين تحديدا وعليه فشعارات نشر الحضارة والتمدين التي لطالما رفعها الفرنسيون وتغنوا بها كانت مجرد كلام للاستهلاك والمغالطة ولم يكن لأفكار الحداثة الغربية (المدنية الغربية) أي تجسيد على أرض الجزائر المحتلة فالحداثة الغربية التي تدعو إلى الازدهار والتقدم والقطيعة مع الماضي بما يحمله من جهل وتخلف واستبداد وسيطرة لقوى على حساب أخرى كانت غائبة بل مغيبة تماما عند فكر الفرنسيين في مستعمراتهم فكلمة تعلق الأمر بالجزائر والجزائريين سعى الفرنسيون إلى الترويج لأفكار مناقضة تماما للفكر التحديثي مفادها أن الجزائري هو إنسان غير قابل للتربية والتعلم والتمدن.⁽¹⁸⁾

وباختصار يمكن وصف الواقع اليومي لتعليم المرأة الجزائرية في ظل سلطة المستعمر أنها انقسمت إلى اتجاهين متوازيين: الأول اتجاه رسمي تجاهل هاته الفئة، وحرص فقط على إدماجها في بعض المناطق في نطاق التعليم التنصيري الأقرب إلى التمهين منه إلى التعليم، والاتجاه الثاني قادته بعض النخب الفرنسية التي حاولت إيجاد دور فاعل للمرأة من منطلق الحرص على

إعادة تكييف المجتمع الجزائري مع مستجدات النظام الرأسمالي الذي يشجع الفردية والنزعة الاستقلالية بين الجنسين.

2- اتجاهات العلماء الجزائريين بخصوص تعليم المرأة:

بدأ الحديث بين العلماء حول مسألة تعليم المرأة المسلمة 'مبكراً، وكان ذلك من خلال ما كانت تنشرها الصحف الباديسية، من ذلك مقالاً للسيد أبو صالح عبد السلام، كانت قد نشرته جريدة 'صدى تلمسان' ردّاً على سؤال بعض مكاتبيها الأوروبيين، حول ذات الموضوع⁽¹⁹⁾. ولما أنشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، شرعت في تأسيس المدارس وتشيد المساجد وإصدار الصحف، ونشر الوعي بين الجزائريين، كانت قضية تعليم المرأة من أهم القضايا التي طُرحت على بساط البحث في نوادي العلماء وحلقات دروسهم. ورغم أنهم لم يصلوا إلى مساواتها بالرجل؛ فإنهم دعوا إلى تحريرها من ربقة الجهل ووطأة العبودية، وقد انقسم الرأي بينهم إلى جناحين بخصوص تعليمها، فمنهم المناصر ومنهم المعارض⁽²⁰⁾.

*الاتجاه المؤيد لتعليمها: ذهب إلى حدّ المناداة بتعمير المدارس الإصلاحية بالبنين والبنات، مُعتمداً في ذلك على الأسس التالية:

- أنّ فساد العقول والنحطاط الأخلاق كانا شاملين للأمة ذكورها وإناثها.
- أنّ المرأة شقيقة الرجل في الإنسانية، فلتكن شريكته في التربية والتثقيف، فلا ينبغي أن تحرم من ينابيع العلم والتربية.
- أنّ الأمّ هي المدرسة الأولى التي يتلقّى فيها الأبناء معلوماتهم الأولية
- أنّ الأنثى مُكلّفة في حكم الإسلام بمثل ما يُكلّف به الرجل، لا يفرقان إلا فيما يرجع للقوة والسيادة؛ فيختصّ الرجل بالإمامة وولاية مناصب الحكم، أما فيما يعود إلى الضعف والحنان فيختص بالأنثى

-أنّ المرأة شريكة الرجل في منزله وقرينته في حياته، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فلا بدّ من تشاركهما في التهذيب وتقاربهما في التثقيف.
وكان ابن باديس من دعاة تعليم البنات المتحمسين، لكن بشرط أن يكون هذا التعليم في إطار دائرة المثل الدينية والمبادئ القومية والأخلاق والحشمة .
ولذلك فهو صاحب الرأي والمنهج الوسطي في هذه المسألة، وقد بذل ما بذل من جهد في سبيل توفير تعليم البنات، فالرجل لم يكن من دعاة حرمان الفتاة من التعليم، كما لم يكن متساهلاً بخصوص ظروف ومهج تعليمها.
وقد عبّر الشيخ الطيّب العقبي عن رأيه بضرورة تعليم وتربية المرأة في إطار التقليد الإسلامي فالشيخ أكد على ضرورة ترقية المرأة الجزائرية داعياً إلى تعليمها وتهذيبها ليتمكن من العيش مع عائلاتهن وأزواجهن عيشة راضية ويحيوا حياة طيبة وأشار إلى ذلك في كتاباته وأشعاره منها :

ما حياة المرء مع زوج ليست أدبية

غير سجن أبدي عظمت فيه المصيبة⁽²¹⁾

ويعكس هذا التوجّه، ما كتبه الأمين العمودي في 'الإصلاح' بالفرنسية " :
يروقي أن أرى الفتاة المسلمة بين حاملات البكالوريا والدكتوراه، حسي أن
أراها تمتلك المعارف الضرورية لدينها ..."⁽²²⁾

*الاتّجاه المتحفّظ على تعليمها :تقوم على معارضته وتحفّظها تعليم البنت
بناء على الحج التالية:

-أنّ إدخالها المدرسة يجمع بينها وبين الابن، وفي ذلك الاختلاط ما تُخشى
عاقبته وخطره على العفاف والفضيلة.

- أنّ تعليمها الكتابة يسهل عليها الوصول إلى وساوس نفسها ويقرب منها
ما يدعو إلى هواها

- خلاصة ما أدلى به هذا الفريق هو الاسترابة والشك بالبنات، والمحافظة على خلق الحياء الذي هو أجمل ما في المرأة.
- وبذلك رأى الفريق المعارض أنّ الحجج السالفة توجب تعليم المرأة ما تعرف به دينها وإدارة منزلها وأولادها، وذلك ممكنٌ بطريقة التلقين الخالي من الكتابة.⁽²³⁾

وهكذا يتّضح أنّ العلماء الجزائريين لم يختلفوا في قضية تعليم المرأة، ولكنهم اختلفوا في مسألة حدود تعليمها وهل من الأفيد لها تعلّم الكتابة، فالفريق المعارض، يعتبر تعليم المرأة الكتابة يشكل خطراً على عفتها وحياتها؛ لأنّ الكتابة تفتح أمامها أبواب المحيط الاجتماعي، وتمكّنها من الاتصالات الخارجية مع أشخاص أجنب عن أسرتها. أما ما يراه بعض العلماء؛ بأن يقتصر تعليم المرأة على ما يجعلها تؤدّي عباداتها وتقوم بواجباتها نحو أسرتها، ففيه إجحاف - حسب رأينا - في حقّ المرأة، وينبئ عن عدم اقتناع تام بالمساواة بين الجنسين، ويحمل بعض الرجعية في فكرهم المصلحين، الموسوم بالحدّاة ومواكبة روح العصر. ولعلّ ذلك نابعٌ من تكوينهم ومرجعيتهم السلفية، وتأثرهم ببعض الأفكار الواردة إلى الجزائر من المشرق تحديداً.⁽²⁴⁾

3- جهود الشيخ بن باديس في تعليم البنات :

أدرك الشيخ بن باديس أن الوقوف في مواجهة المشاريع الاستعمارية الفرنسية الهادفة إلى التجهيل المطلق للشعب الجزائري أساسه تعليم المرأة وتثقيفها ورفع مستوى وعيها وإدراكها واعتبر المرأة كانت تغط في جهل عميق وأعمى وحمل الأولياء مسؤولية ذلك ورأى أنهم يأثمون بذلك إثمًا كبيراً مستدلاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما استفاض به التاريخ الإسلامي من عالّات وكاتبات كثيرات كدلالة قوية على مشروعية تعليم النساء.⁽²⁵⁾

أكد الشيخ بن باديس على ضرورة تعليم المرأة وإنقاذها من الجهالة ونصح بتكوينها وتهيتها على أساس العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة والشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم محملاً مسؤولية جهل المرأة لأوليائها وللعلماء الذين يقع عليهم واجب تعليم الأمة برجالها ونساءها مستدلاً على وجوب تعليمها بالآيات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء وبالأحاديث الشريفة ومذهبه أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا ما خصص لأن النساء شقائق الرجال واستدل في مسألة تعليم النساء بالحديث الذي رواه أبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت: "دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم - وأنا عند حفصة - فقال لي " ألا تعلمين هذه رقبة النملة كما علمتها الكتابة" (رواه مسلم) كما استدل بالتاريخ الإسلامي وما استفاد فيه من وجود العالمات الكاتبات الكثيرات⁽²⁶⁾.

وبناء على هذا كان للمرأة حظ كبير في تفكير وأراء ابن باديس التربوية حيث عمل باجتهاد وجهد كبير على فتح مدارس خاصة بتعليم البنات تعليماً دينياً صحيحاً يتفق وما تصبوا إليه مع ونفض تلك الأسمال من العرف الذي يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة ومن كل ما يؤهلها لتكون جديرة بالحياة وقد تحمس ابن باديس لتعليم المرأة وفق ما يمليه الشرع الإسلامي، كون المرأة في عصره كانت على شكلين: إما محرومة نهائياً من التعليم بحيث لا تعرف قراءة أو كتابة.

وإما متعلمة تعليماً أجنبياً (فرنسيا) سطحياً يعمل على جعلها تستخف بعروبيتها ودينها وتقاليدها الاجتماعية فتتكر أصلها وعروبته وإسلامها لذا وجد ابن باديس نفسه يجذب الجاهلية التي تلد أبناءاً للأمة يعرفون وطنهم وقوميتهم عن المثقفة ثقافة أجنبية التي تنجب أطفال مغربين.⁽²⁷⁾

أعطى ابن باديس اهتماماً بقضية تعليم المرأة ومنحها الأولوية في مشروعه الإصلاحية حيث أجاز التعليم المجاني للبنات للقادرات والعاجزات منهن عن دفع النفقات بهدف استقطاب عدد كبير من البنات للتعليم ودحض حجج أولياء أمورهن الذين يتحججون بقلّة أو انعدام الموارد المالية لتعليم بناتهن كذريعة لتغطية معارضتهم لخروج البنت من البيت وتعلمها وانحراجهم من خروجها للشارع عند غدوهم ورجوعهم من المدارس : " والحق أن بن باديس كان على صواب فيما يتعلق بتعليم المرأة الجزائرية في عصره لأنه مثل زملائه كان يشاهد الفرنسيين يحاولون اقتحام معقلها إما لكي يجعلوها آلة لتربية عبيد وإماء للمستوطنين وأما لتعليمها تعليماً فرنسياً سطحياً ممسوخاً يجعل منها أداة لفرنسية الجزائر وتدعيم الهيمنة الفرنسية عليها فإذا فرنست المرأة أم ربة بيت وراعية للأطفال فإن القومية العربية في الجزائر سوف تنهار" (28).

إن التعلم في نظر ابن باديس حق إنساني للذكور والإناث على حد سواء وواجب ملزم للعلماء عليهم القيام به يقول ابن باديس : " علينا أن نشر العلم في أبنائنا وبناتنا ونسائنا ورجالنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكن أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء " (29) ومع قناعة ابن باديس التامة بأن التعلم حق للمرأة كالرجل فإنه كان يرى عدم جواز الاختلاط بين الجنسين أثناء التعلم فإما أن يفرد النساء بيوم خاص بهن أو أن يتأخرن عن صفوف الرجال كما كان ذلك في عهد السلف . (30)

إن غاية بن باديس من وراء دروسه ومحاضراته ومقالاته الصحفية أن يصنع أجيالاً قادرة على حمل الرسالة وبناء حياة تكون في مستوى الأمة دينا ولغة وتاريخاً حيث سأله أحد تلامذته يوماً : لما لا تؤلف الكتب ؟ فكان جوابه " إن الشعب يا بني ليس اليوم بحاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في

حاجة إلى الرجال ،هب أني انصرفت إلى التأليف وانقطعت عما أنا اليوم
بصدده من نشر العلم وإعداد نشرء الأمة فمن يقرأ كتي وتأليني مادام
الشعب في ظلمات الجهل والأمية "(31)

4- منهج المدرسة الباديسية في تعليم البنات :

إن الشيخ بن باديس عند وضعه لمناهج التعليم لم يكن مذهبه مثالاً
مبنياً على تصورات نظرية بل كان واقعياً أملتة متطلبات العصر وأولويات
المتجمع ومعتقداته ، وعناية ابن باديس بموضوع التربية ليست عناية الباحث
المنظر الذي لا شأن له بالتطبيق العملي بل كان يمارس ذلك كل يوم في
حلقات دروس في الكتاتيب والمدارس وحتى في النوادي والأسواق . (32)

إن الإصلاح بصفة عامة عند الشيخ بن باديس " هو إرجاع الشيء إلى
حالة اعتدال بإزالة ما طرأ عليه من فساد " ويقول " صلاح الشيء هو كونه
على حالة اعتدال في ذاته وصفاته بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة على
وجه الكمال "وقد لاحظ أن المناهج والبرامج المتبعة في زمانه ليست في حالة
اعتدال سواء في صورتها أو مادتها لإهمالها كثيراً من المبادئ الخالدة التي جاء
بها الإسلام فهو يرى أنه " لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم
النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم صلى الله عليه
وسلم وفي صورة تعليمه " . (33)

يؤكد بن باديس على ضرورة إعداد المناهج المناسبة لتنشئة أجيال
المستقبل وتربيتها التربية الصالحة موضحاً بقوله " إن أبناءنا هم رجال
المستقبل وإهمالهم قضاء على الأمة إذ يسوسها أمثالهم ويحكم في مصائرهم
أشباههم ... ونحن ينبغي هنا أن نربي أبناءنا كما علمنا الإسلام فان قصرنا

فلا نلوم نالا أنفسنا ولنكن واثقين أننا نبني على الماء ما لم نعد الأبناء بعدة الخلق الفاضل والأدب الديني الصحيح⁽³⁴⁾

وقد أكد الشيخ بن باديس على المنزل ورآه المصنع الذي يصنع الرجال رابطا ربطا وثيقا بين تربية الطفل أخلاقيا ودينيا بخلق المرأة وتدينها فقال : "البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتدين المرأة هو أساس حفظ الدين والخلق والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن"⁽³⁵⁾

وفيما يخص تعليم البنات أكد بن باديس على عدم جواز اختلاط النساء بالرجال في التعليم ، أما يتأخرن عن صفوف الرجال أو يفرد لهن يوم لوحدهن ويتكرر هذا اليوم حسب الحاجة ، وتكون المناهج التعليمية حسب الحاجة والظروف "وما تشدد إليه الحاجة فان حنان النساء وضعفهن يجلانهم على الجزع الشديد وقد يخرج بهن إلى القبيح فذكر لهن ما يكون عدة لهن ووقاية عند نزول المصيبة وفيه ما ينبغي من تهئية القلوب وتحضير النفوس لتلقي التكاليف الشرعية لتشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح ولذا قدم الوعظ على الأمر"⁽³⁶⁾

وفي نفس الوقت أكد الشيخ أن الجهالة التي تعيش فيها النساء اليوم جهالة عمياء محملا المسؤولية لأوليائهن بقوله "وأن على أوليائهن المسؤولية عنهن إثما كبيرا فيما هن فيه ، وان أهل العلم والإرث النبوي مسئولون عن الأمة رجالها ونسائها فعليهم أن يقوموا بهذا الواجب العظيم في حق النساء بتعليمهن خلف صفوف الرجال وفي يوم خاص بهن اقتداء بالمعلم الأعظم"⁽³⁷⁾

إن تعليم المرأة في المدرسة الباديسية خالف كل أساليب التعليم المعاصرة له في الجزائر حيث مزج بين منهجه بين التعاليم الإسلامية والمبادئ القومية والوطنية وعلوم العصر فهو يشترط أن يكون هذا التعليم في دائرة المثل الدينية والقومية والأخلاق والحشمة بحيث: " لا تجعل منها نصف رجل ولا نصف امرأة " لأجل ذلك لم يهمل العلماء تعليم اللغة الفرنسية بل انتدبوا معلمات فرنسيات لهذا الغرض ، كما تشير بعض الكتابات حول الموضوع ولم يفرض على المعلمات بمدارس الجمعية هندام معين ، لا بل أن غالبيتهم كن غير متحجبات سواء معلمات اللغة الفرنسية أو اللغة العربية وباقي المواد المقررة ، هذا الأمر أثبتته السيدة زهور ونيسي في مذكراتها عند حديثها عن معلمتها الأولى بقسنطينة إذ كتبت: " أما التي علمتني الحروف الهجائية ودربت لساني على النطق والكلام بلغة عربية سليمة ومرنت أصابعي على الكتابة بخط جميل فهي السيدة حورية أو لالا حورية لا تختلف أبدا عن معلمات بالمدارس الفرنسية ذات هندام عصري أنيق ونظارات ذهبية وحذاء ذي كعب عالي وشعر قصير مسرح حسب موضة ذلك الوقت "(38) .

عرفت فترة رئاسة الإبراهيمي للجمعية اهتماما أكبر بالمرأة وتوسعا ملحوظا في تعليم البنت الجزائرية لاسيما في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية (1946_ 1952) فقد وصل عدد الإناث في مدارس الجمعية 5696 بنت ليقفز 13 ألف بنت سنة 1953م وقد دافع وجادل الشيخ الإبراهيمي عن حقوق الفتاة في التعلم بل اعتبرها واجبا عليها ، وكان الشيخ يخطط لإنشاء دار للمعلمات ومعهد بنات على غرار معهد ابن باديس للذكور وقد ساء الاستعمار وأتباعه إقبال البنات الجزائريات على مدار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فأشاع عن طريق أذنا به في الجزائر أن مدارس الجمعية " عرضت الأعراض للتمزيق " وقد تصدى محمد البشير الإبراهيمي بقلمه

لتلك الحملة وكشف هدفها " إن الاستعمار متشائم بتعليمها - الجمعية - للبنات المسلمة لأن نتيجته ستكون بنت صالحة تصبح غدا زوجة صالحة وبعد غد أما صالحة وبعد غد أما صالحة وهاله أن تعمر البيوت بالصالحات فيلدن جيلا صالحا صحيح العقائد متين الإيمان قويم الأخلاق طموحا في الحياة فتطول بع غصته ثم تنتهي به قصته ... لأن الاستعمار بعيد النظر عارفا بما للمرأة في أمتها من الأثر فهو - بذلك - حركهم وما زال يحركهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه العلماء لزعة ثقة الأمة بالجمعية في خصوص تعليم البنات"⁽³⁹⁾.

كما يرد في إحدى الصحف العربية التي أثارت موضوع تعليم الجمعية للبنات المسلمة ويصف ما جاءت به بأنه إفك وزور متهما إياه بتصنع الغيرة على أعراض المسلمات والحرمان الإسلامية ، وكان تفكير الإبراهيمي جادا في إنشاء معاهد للبنات على غرار معاهد البنين رغم علمه بالتكاليف الكبيرة لمثل هذا المشروع فقد كتب في سياق حديثه عن معهد ابن باديس " ... معهد خاص بالبنات المسلمات اللاتي شين عن طوق التعليم الابتدائي وأصبحن يطالبن المزيد إلخافا ولشدة إلحاحهن أصبحنا نلاقي من إلحاحهن رهقا"⁽⁴⁰⁾

5- طرق التدريس ومنهجها عند الشيخ بن باديس :

الشيخ بن باديس رجل تربية بسليقته وطبعه وتكاد تكون ملكة التفهيم أبرز صفاته وأخص نعوته (، مستعملا طريقة الحوار والمراجعة والاستفهام والاستنتاج ، أما أسلوبه في التفسير والحديث فهو أسلوب الأمام أشبه واليه أقرب فيعتمد على التطبيق والتحقيق وسوق العبر وصوغ العظات ، ومن أهم صفاته في التدريس أنه لا يشعر بثقل القواعد وجفاف الحقائق العلمية بل يفيض عليك من روحه الأدبية وحياته الاجتماعية ونشاطه المستديم ما يكسبك نشاطا ومرحا ورغبة في العلم وتعطشا له⁽⁴¹⁾.

قام تعليم الشيخ بن باديس على قسمين :

أ - تعليم ديني ولغوي مسجدي يشبه إلى حد كبير التعليم بالمعاهد الأزهرية والزيتونة والقرويين.

ب - تعليم مدرسي حديث وهو أيضا ذو صبغة دينية ولغوية وهذا النوع من التعليم كان يتعلمه الأطفال الصغار في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة وفروعها في بعض مدن القطر الأخرى ثم في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تكوينها عام 1931م وهو يشبه إلى حد كبير التعليم الحديث في المدارس العربية بالشرق العربي في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين⁽⁴²⁾.

إن المقبلين على هذا التعليم المدرسي الأخير نوعان من الأطفال :

1- الأطفال الذين يتابعون دراستهم النهارية في المدارس الفرنسية حيث يحضرون ساعات معينة بعد انتهاء دراستهم فيها لتلقي مبادئ اللغة العربية والقرآن الكريم ومبادئ الدين والأناشيد الوطنية .

2- الأطفال المحرومون من التعليم في المدارس الفرنسية : يتابع هؤلاء دراستهم فيه كاملة بحيث يتناولون معظم المواد التي يدرسها زملاءهم بالفرنسية في المدارس التابعة لحكومة الاحتلال ولكن باللغة العربية مع تغليب الجانب اللغوي والديني⁽⁴³⁾.

وقد ساهم الشيخ بن باديس في التعليميين معا ولكنه تفرغ فيما بعد للنوع الأول تاركا لتلاميذه أو خريجي الزيتونة والأزهر والقرويين التدريس في النوع الثاني واحتفظ لنفسه بالإشراف والتوجيه العام ، أما طريقة التدريس التي كان الشيخ يتبعها فهي تختلف باختلاف النوعين التعليميين المذكورين ، فالتعليم المسجدي للكبار له طريقة الإلقاء والمحاضرة والحوار والمراجعة وهي

ما كان يستخدمها الشيخ في تدريسه دروس الأدب العربي والحضارة الإسلامية والبلاغة والبيان والتفسير وشرح الأحاديث النبوية.⁽⁴⁴⁾

أما النوع الثاني فابتع طريقة الجزئية في الصفوف الأولى المبتدئة والطريقة القياسية في الصفوف المتقدمة، ويلاحظ أن الكتب المدرسية كانت في معظمها من الكتب المقررة في المدارس المصرية في ذلك العهد ولذلك فإن طريقة التدريس التي ألفت على أساسها تلك الكتب مثل كتاب النحو الواضح وكتاب القراءة الرشيدة وغيرهما هي ما كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يستعملها في تدريس في هذا النوع من التعليم.⁽⁴⁵⁾

خلاصة:

إن تعليم المرأة ضرورة حتمية في بناء المجتمع بناءاً صحيحاً. غلق الاستعمار الفرنسي على التعليم للفئات الجزائريات للذكور والإناث معاً إلا أن الإهمال للفئات الأنثوية أكثر لوعيتها المطلق بالدور الخطير الذي ستؤدي في حال تعليمها، وإن علمت بعض الفتيات الجزائريات فإن هن علمن تعليماً مفرنساً سلبياً تأثيراتها سلبية عليهن وعلى المجتمع.

اختلفت النخبة المثقفة في الجزائر في مواقفها من تعليم المرأة بين مؤيد ومؤكد وحريص على تعليمها وتهذيبها وبين معارض أو متحفظ على ذلك لحجة ضرورة تحصين المرأة من المؤثرات الخارجية وحفاظاً على حياتها وشرفها.

أكد رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على تعليم المرأة بل سعوا إلى ذلك سعياً ومهنتهم الشيخ العقبي، الأمين العمودي والبشير الإبراهيمي بإلقاء الدروس على الفتيات وتأسيس جمعيات خاصة بهن.

لقد كان الشيخ بن باديس يرى في تعليم المرأة أهم شروط تكوين الرجال الصالحين القادرين على تحمل المسؤوليات فتكوين رجال صالحين مرهون بتكوين أمهات دينيات ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً وتربيتهم تربية إسلامية ، وإذا تركن على ما هن عليهن من الجهل والدين فمحال أن نرجو منهن أن تكون لنا عظماء الرجال .

بني الشيخ بن باديس منهج تعليم البنات على ضرورة تعليمهن الكتابة دون الاختلاط بالذكور وبتخصيص حصص خاصة بهن أو وضعهن في مؤخرة الصفوف .

استمد الشيخ بن باديس منهجه في التعليم من القرآن والسنة أما الدروس فكانت هي تقريباً الموجودة في دولة مصر .

أدى الشيخ بن باديس وغيره من النخبة المثقفة والواعية دوراً بارزاً في إعداد المرأة إعداداً صحيحاً بتعليمها وتثقيفها والحرص على تدينها لتأدية رسالتها الحساسة في المجتمع والمتمثلة في إعداد جيل واعٍ مثقف ومتدين غيور على الوطن ، الجيل الذي سيجعل مشعل الحرية بالثورة والاندفاع نحو الاستقلال .

الهوامش:

- 1- أحمد مريوش : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ج 1 ، د ط ، كنوز الحكمة ، الجزائر ، د ت ، ص 216.
- 2 - المرجع نفسه.
- 3 - نفسه ، ص 217.
- 4 - نفسه.

- 5 - نفسه ، ص 225.
- 6- نفسه.
- 7 - زهير بن علي : قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية (1925 _ 1954)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، 2014_2015 ، ص 119.
- 8 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 6 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ص 338.
- 9 -المرجع نفسه .
- 10 -بن علي ، المرجع السابق ، ص 120.
- 11-المرجع نفسه .
- 12 - نفسه ، ص 121 .
- 13 -نفسه ، ص.
- 14- تركي رايح : الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر (مرجع شامل عن حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس وأعماله العلمية والتربوية والإسلامية والثقافية والوطنية ، ط5 ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ، الجزائر ، 2001 ، ص 366_367 .
- 15-المرجع نفسه .
- 16 -بن علي ، المرجع السابق ، ص 120
- 17- المرجع نفسه .
- 18 -نفسه ، ص 122.
- 19- عبد العزيز الزناقي : أيستحب تعليم المرأة المسلمة وترشيدها ، العدد 14 ، سنة 1927 .
- 20 بن علي ، المرجع السابق ، ص 177 .
- 21- أحمد مريوش : الشيخ الطيب العتيبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية ، دط ، دار هومة ، الجزائر ، 2012 ، ص 102.
- 22 -بن علي ، المرجع السابق ، ص 178.
- 23 -الشيخ بن باديس : الرجل المسلم الجزائري ، الشهاب ، مج 5 ، ج 10 ، ص 13-14 .
- 24 - المرجع نفسه .
- 25- حجية شيدخ : عناية الإمام الشيخ بن باديس بقضايا المرأة وجهوده في النهوض بها ، مجلة الوعي ، العدد 1، سنة 2010، الجزائر ، ص 79.
- 26- عمار طالبي :ابن باديس حياته وأثاره ، ج 2، م 1، د ط ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2012، ص 201 .
- 27- بن علي ، المرجع السابق ، ص 182_183 .
- 28- تركي ، المرجع السابق ، ص 463 .

- 29- عمار طالي : ابن باديس ، حياته وأثاره ، ج 2، د ط ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2012، ص 161.
- 30- بن علي ، المرجع السابق ، ص 183.
- 31- المرجع نفسه ، ص 185 .
- 32- مصطفى محمد حميداتو : إصلاح التعليم عند بن باديس ، إصلاح المناهج - اطلع عليه 9 و د 35 يوم 21 - 2 - 2018
- 33- المرجع نفسه .
- 34- نفسه .
- 35- تركي رابع ، المرجع السابق ، ، ص 463.
- 36- عمار طالي ، المصدر السابق ، ج 2، ص - 199-200.
- 37- المصدر نفسه .
- 38- بن علي ، المرجع السابق ، ص 197 .
- 39- المرجع نفسه .
- 40- عمار الطالي ، المصدر السابق ، ج 2، ص 21-، 22.
- 41- الجليلاني بن محمد : مجلة الشهاب ، ج 7، م 15، ص 321 - 327 .
- 42- تركي ، المرجع السابق ، ص 479 - 480.
- 43- المرجع نفسه .
- 44- نفسه .
- 45- نفسه ، ص 480 - 481